مناقشات

الحرية والحرية فقط

بقلم : يسرى خميس

لفتت نظري المشكلة التي طرحت في مؤتمر (الادباء العرب) التاسع في تونس تحت عنوان « الادب العربي والتكنولوجيا » .

كما لفت نظري في المقالات الثلاث التي تعرضت لهذا الموضوع انها كانت بعيدة عن جوهر القضية ، وتبدو بدون منهج متماسك يدفع بالقضية الى التطور والتحليل والفهم . واعتقد ان السبب في ذلك التشتت والتناقض في التحليل يرجع الى ثانوية المشكلة اولا بالنسبة للواقع العربي الراهن ، والى فقدان المنهج العلمي ثانيا . والغريب ان الدراسات قد وضعت يدها بالفعل على بعض ملامح الصورة الاساسية ، لكنها كانت تخرج دائما عن اصل القضية ، وراحت تبحث استعمال التكنولوجيا في الفن بل وتجد ان الحل « هو اصدار المجلات المتخصصة في العلوم والاختراعات الحديثة . وان وضع برنامج لترجمة اهم الكتب العلمية التي تصدر في الدول المتقدمة ، سيحدث (ثورة فكرية في الوطن العربي !!) وستكون هذه الثورة مادة خصبة يستغلها الاديب !! .. وان تحقيق الوحدة العربية هو الحل النهائي .. » كما حدد الدكتور ابو القاسم سعدالله . وبينما يؤكد الدكتور حنفي بن عيسى في بداية مقاله انه « للاسف الشديد ما تزال الثقافة في بلادنا قائمة من حيث المنطلق على أفكار غيبية وعلى معتقدات خرافية لا اساس لها من الصحة .. » يبنى تحليله للقضية اساساعلى ان « اللغة من نعم الله على عباده ، وليس لاي واحد منهم ، مهما اوتي من الفصاحة والبيان ، اي نصيب في الخلق والابداع ، لان الله هو الذي (علم آدم الاسماء كلها) وقد بين الاسلام ان الاسماء التي هي ادوات الانتاج الفكري ، انما هي توفيق من عند الله » !

لا اريد ان اناقش القضايا التي اثيرت ، لكنني - كشاعر وكعالم - سوف احاول ان اضع اطارا لتلك الصورة .

الدول العربية - دول متخلفة تكنولوجيا ، رغم ثرائها النسبي، وهذا يرجع للاستنزاف الاستعماري الطويل والاستنزاف (الوطني) في الماضي ، والوضع السياسي المعقد في الحاضر ، وعدم قدرتنا على فهم الصراعات السياسية الدولية ، والدور الذي تلعبه الدول المستفيدة من المنطقة ومن استمرار الصراع فيها - هذا بالاضافة الى سوء اغلب سلاطين الحكم ، وسوء استغلال الثروات وتوزيعها، وكثرة العملاء والمستفيدين . فالواقع العربي اذن لا يطرح القضية على الاطلاق في تلك المرحلة التاريخية .

التكنولوجيا - بالنسبة للانسان هي تغيير في ادوات العالم يجب ان ينعكس على وعي الانسان ، وان يصاحبه تغيير نوعي في طبيعة هذا الوعي ، والا اصبحت التكنولوجيا عبئا بالفعل ، او طلسما يقترب من السحر ، ونعود من حيث بدأنا ، فأمير البترول الذي يركب السيارة ، لا يعاملها كسيارة ، انما كجمل . لان وعيه بالاشياء وبالعالم ما زال في مرحلة البداوة .

فالتقدم التكنولوجي - في حد ذاته - لا يعني مطلقا تعميق وعي الانسان ، بل ان الانسان العادي في اوروبا التكنولوجية، لا يبتعد كثيرا في درجة وعيه عن الانسان العربي - وهنا يهمني تحديد التعبير المتداول « الدول المتقدمة » و « الدول المتخلفة » بضرورة اضافة صفة « تكنولوجيا » حتى يستوي التعبير ويكون اكثر ملاءمة للواقع اي « الدول المتقدمة تكنولوجيا » و« الدول المتخلفة تكنولوجيا » .

فالانسان في المجتمع المتقدم تكنولوجيا - بجوار الاستلاب الذي يعيشه والظروف الاجتماعية السياسية التي تحدد له سلفا طريقة الحياة والاهتمامات . الخ - يتعامل مع سطح التقدم العلمي ،ولا يقترب من الجوهر . فالقضية اذن ليست قضية تكنولوجيا او كهرباء - انما قضية نظام سياسي اجتماعي اقتصادي يحترم الانسان او لا يحترمه .

هنا نصل الى التساؤل الجوهري : كيف هو الوضع في دولنا العزيزة ؟ والى اي حد يحترم الانسان ؟

الاجابة : نعرفها جميعنا ، ولقد حددها الكتاب الثلاثة في دراساتهم . وحددها ايضا مؤتمرهم المبارك .

الحرية اذن هي القضية - وليست التكنولوجيا - التي يجب ان يشغلنا في هذه المرحلة . الحرية على جميع المستويات (الخارج والداخل) والحرية فقط . ولندع مشاكل الادب والتكنولوجيا للاجيال التي سوف تعيش تلك المرحلة . ولنترك مشاكل المستقبل لكتاب المستقبل . وهذا لا يعني أنني ضد التكنولوجيا، او ضد المستقبل ، او قومي منفصل عن مشاكل العصر .. الخ فهذه افتراضات ساذجة لا تعي ظروف الواقع الخاص في البلدان العربية.

نحن - كشعراء - لا نخاطب العالم بشكل مطلق ، لكننا نخاطبه من خلال واقعنا الخاص ، القومي الخاص ، المتخلف تكنولوجيا . وليس هناك سبيل اخر . فالتكنولوجيا يجب ألا تبهرنا بهذا الشكل الساذج ،فهي بالنسبة للاديب لا تفضل السحر أو الطقوس او الاسطورة .. انها اداة من ادوات المعرفة البشرية .

وسوف تظل « الكلمة » هي محور الادب ، وكل المحاولات التي خرجت عن هذا الطريق ، محاولات محدودة الاثر ، ومشروعة . فلتكن الحرية اذن هي القضية . والحرية فقط .

المانيا الغربية — يسرى خميس

صدر حديثا :

خطوات في الرمل

(ادب سياسي وشعر منثور)

بقلم : عادل الاعور

ومن ابوابه : « غبار المعارك » مع الدكتور شكري فيصل ، مجلة « العربي » ، الدكتور سهيل ادريس ، رشدي المعلوف .

وفيه حملات ضد اعمال اضطهاد الفكر في العالم العربي . وسوى ذلك . وهو الكتاب الثالث للمؤلف بعد « نذير العاصفة » (١٩٥٥) و « هذا جسدي فكلوه » (١٩٦٥) .